المنهج الاثنوغرافي واستخداماته في علوم الاعلام والاتصال

رزيقة حيزير أستاذة باحثة
جامعة الجزائر 3

الملخص:

تقدم هذه المقالة لمحة عن مختلف البحوث الإثنوغرافية في حقل علوم الإعلام والاتصال. ويقترح التحقيق الاثنوغرافي الذي يعتمد على تقنيات بحث ميدانية خاصة، وصف (تأويل) ممارسات الفاعلين وتفاعلاتهم ضمن سياقهم الثقافي، من خلال استخدام الملاحظة بالمشاركة للممارسات اليومية. وبشكل عام، مكّنت هذه البحوث الكيفية التي تتطلب معايشة الباحث الكيفي للمبحوثين والظواهر المراد دراستها، من فهم أفضل لسيروروات اضفاء الدّلالات على استخدام وسائل الإعلام أو التكنولوجيات وتحديث مختلف الممارسات في الحياة اليومية.

. **الكلمات المفتاحية:** البحث الكيفي؛ الاثنوغرافيا؛ الظاهرة الاتصالية.

RÉSUMÉ

Cet article tracera un panorama des différentes recherches ethnographiques dans le champ des sciences de l'information et de la communication. L'enquête ethnographique basée sur des techniques qualitative particulières de recherche de terrain , propose de décrire - et donc inévitablement d'interpréter - les pratiques et interactions des acteurs dans leur contexte culturel, sur la base de participer pour observer les activités de tous les jours. De façon générale, ces recherches qualitatives qui impliquent toujours un engagement personnel du chercheur, ont permis de mieux appréhender les processus à travers lesquels les médias ou les technologies acquièrent une signification et de mettre à jour les variétés des pratiques dans la vie quotidienne.

MOTS-CLÉS : La recherche qualitative, Ethnographie, phénomène communicationnel.

مقدمة :

توسّع استخدام البحوث الكيفية بشكل قوي في نهاية السبعينات وبداية الثمانينات من القرن الماضي، كاتجاه مكمل للبحوث الكمية، وكطريقة جديدة لدراسة الظواهر الاجتماعية والانسانية، على اعتبار أنّ البحوث الكمية أصبحت عقيمة، ولا تصلح في دراسة كلّ الظّواهر الاجتماعية والانسانية. حيث يقول "أنسليم ستراوس" Anselm Leonard Strauss: "يقصد بمصطلح البحث الكيفي أيّ نوع من البحوث لم يتمّ التّوصل إليها بواسطة الإجراءات الإحصائية، أو بواسطة أي وسائل أخرى من الوسائل الكمية".[1]

وتفترض البحوث الكيفية وجود حقائق وظواهر اجتماعية يتمّ بناؤها من خلال وجهات نظر الأفراد، والجماعات المشاركة في البحث.[2] كما تهدف في الأساس إلى فهم الظّاهرة موضوع الدّراسة، وعليه ينصبّ الاهتمام هنا أكثر على حصر معنى الأقوال التي تمّ جمعها أو السّلوكات التي تمّت ملاحظتها.[3] ما يعني أنّ المبحوثين في البحث الكيفي يتحدثون مع الباحثين، ويشاركونه في البحث عن الحقيقة من خلال انتاج البيانات. وهذا ما جعل من البحوث القائمة على الملاحظة بالمشاركة، أو المقابلة الكيفية، وبحوث سيرة الحياة، وطريقة المحادثة الجماعية، والمنهج الوثائقي، ترى في المجتمع وإنسانه وتاريخه كتابا مفتوحا، وتستخلص من يومياته مباشرة مختلف المعلومات والبيانات وأنواع المعرفة، وتفسّر التّغيرات النّوعية في المجتمع المعقّد.

وتعتبر حقبة الثّمانينيات والتّسعينيات مرحلة إحياء المناهج الكيفية، وتدريسها في معظم الجامعات الأوربية تقريباً، حيث صار رواد هذا المنهج يؤكّدون على تميّز المنهج النّوعي عن المنهج الكمي او الاحصائي الذي أصيب بالعقم مع بعض مختلف الظّواهر الاجتماعية.[4] ففي البحث الكيفي يدخل الباحثون كما سبقت الاشارة إلى ذلك في علاقة مباشرة مع ظواهر العالم الإمبريقي، بدلاً من خلق المسافات الكبيرة التي تفصل بين الباحثين والمبحوثين. وهو بالضّبط ما تتبناه الملاحظة بالمشاركة غير المقنّنة، التي تفتح مدخلاً مباشراً إلى عالم الإنسان.[5]

والواقع أن استخدام البحث الكيفي كان معروفا وحاضرا دائما في البحوث والدّراسات العلمية؛ إذ يرجع تاريخ العديد منها إلى القرن التّاسع عشر، كالمنهج الهرمينوطيقي عند "شلايرماخر" و"دلتاي" و"فيبر"، وعند مؤرخي القرن التّاسع عشر، والمنهج الفينومينولوجي عند "هوسرل"... وغيرهم. إلاّ أن معظم الدّراسات المعاصرة ترجعه إلى العقود الأخيرة من القرن العشرين، وتكاد تحصره بمدرسة التّفاعلات الرّمزية والمدرسة الظّاهراتية والإثنوميثودولوجيا، علماً بأنّ تاريخ البحوث الكيفية أقدم من ذلك بكثير، وهي ليست وليدة أو وقفا على الدّراسات الانثروبولوجية.

من جهتهم شدّد باحثوا علوم الاعلام والاتصال، على أهمية الاستفادة من البحوث الكيفية في دراسة بعض الظّواهر الاتصالية، ولم يفوّتوا فرصة استدعاء هذا النّوع من البحوث مع نهاية القرن الماضي، للوصول الى رؤى حاسمة حول استخدامات وسائل الإعلام والاتصال الجماهيرية في سياقات الحياة اليومية، فقد كان هناك اتجاهات ومجالات لتطبيقها على نطاق واسع، مضيفة بذلك من جهتها جملة من الأفكار والمفاهيم والمصطلحات الجديدة التي أثّثت لبدايات أبحاث أخرى، ونتائج علمية تصبّ بالأساس في موضوع جمهور وسائل الإعلام والاتصال.

وتعتبر الاثنوغرافيا المنهج الكيفي الأكثر استخداما في بحوث علوم الاعلام والاتصال في سبيل الحصول على معلومات علمية دقيقة حول الظّاهرة الاتصالية والاعلامية المدروسة. إذ برزت لدى العديد من الباحثين في قضايا

الاتصال والإعلام رغبة ملحة تُؤمن بضرورة استعارة المنهج الاثنوغرافي لتوظيفه في دراسة الظّواهر في بيئتها الطبيعية، وبأساليب تفاعلية، بغية الوصول إلى مؤشّرات ونتائج غير إحصائية تتّصف بالمرونة والعمق والدّقة، وتسعى إلى التّبصر، والفهم، والتّطبيق على المواقف المشابهة، وللوقوف على رؤى حاسمة حول استخدامات وسائل الإعلام والاتصال الجماهيرية في سياقات الحياة اليومية.

واستعار الباحث البريطاني "دافيد مورلي" David Morley المقترب الاثنوغرافي في دراسة التفاعلات بين مختلف أفراد العائلة أمام شاشة التلفزيون في السّياق "الطّبيعي" أو الفضاء المنزلي، حيث استجوب ولاحظ بالمشاركة ثمانية عشر عائلة بريطانية من الطبقة العاملة تتكوّن من شخصين بالغين وطفلين. وقد اهتم هذا الباحث بالاختلافات المتواجدة بين العائلات المبحوثة من جهة، وبين الأفراد داخل العائلة الواحدة من جهة ثانية، مركّزا على علاقة السّلطة بين الجنسين وبين البالغين والقصر، دون أن يهمل إطار التّحليل، وبنية الجمهور من منظور الانتماء الطّبقي والتّربية والايدولوجيا... التي تحدّد السّياق الاجتماعي والثّقافي الذي تحلّل فيه تركيبية الجمهور، وواقعه وأنماط تفاعله. وطرح "دفيد مورلي" بعد هذه الدّراسة مجموعة من المفاهيم الجديدة كسياق المشاهدة والديناميكية العائلية والتكنولوجية المنزلية.

ولم تكن ما أفرزته الحياة التكنولوجية بمعزل عن تتبّع الاهتمام بهذا النّوع من الدّراسات الكيّفية التي مسّت مزايا وخبايا العالم الافتراضي، وغطست في عالم الجمهور المستخدم للوسائط الجديدة، لتعالج حقيقة المجتمع الانساني المعاصر الذي تفسّخت فيه العديد من أطر التّرتيبات، وهو يعيش مجتمعه الافتراضي الذي لا يمكلك حدودا واضحة المعالم، على غرار ما قدمه كلّ من الباحثين الغربيين "باتريسيا درينتا Patricia Drentea و"جينيفر موران كروس Jennifer L. Moren-Cross" و"دون ستايلر" Don Staler مع "دانيال ميلر D. Miller" وكذا "هين Hine "... من خلال ما يسمى اليوم بالاثنوغرافيا الافتراضية Ethnographie virtuelle أو النتنوغرافيا Le Netnographie.

وتسعى هذه الدّراسة إلى التّعرف على استخدامات المنهج الاثنوغرافي في بحوث علوم الاعلام والاتصال، وهذا بطرحنا للإشكالية الرئيسية التالية: ما مدى استخدام المنهج الاثنوغرافي في بحوث علوم الاعلام والاتصال؟ وما هي معايير اختياره وواقع استخداماته ضمن البحوث والدراسات الاعلامية والاتصالية؟

أوّلا: الاثنوغرافيا: خلفية نظرية

تتصف البحوث الاثنوغرافية بأنّها بحوث كيفية، يتمّ اللّجوء إليها في سبيل الحصول على فهم معمّق ومفصّل للأسباب والمعتقدات والدّوافع، ووصف شمولي للظّاهرة المبحوثة،[6] كما تهدف أيضا إلى فهم لماذا وكيف وما التّأثيرات والسّياقات الخاصة بالمشكلة المبحوثة؟. وهذا من خلال معايشة الباحث لحياة المبحوثين ويومياتهم، حيث أن الأفعال الإنسانية وآراء الأفراد ومعتقداتهم تتأثر بالمواقف، وبالبيئة التي تحدث فيها، ومن خلال السّياق الذي يفسر فيه الأفراد أفكارهم ومشاعرهم وأفعالهم. ويتم التّوصل إلى هذا الإطار من قبل الباحث خلال جمع البيانات وتحليلها، ولا يهدف الاثنوغرافي إلى تعميم النّتائج، بل توسيع نتائج الحالة التي كثيرا ما تقود إلى مواقف وحالات قد تكون مشابهة.

وفي هذا الصّدد نجد الفيلسوف الألماني "إدموند هوسرل" Husserl، يصف البحوث الكمية ببحوث مقطوعة الصلة بالإنسان وعالمه، وليس لديها شيء ما تقوله لنا في أزمتنا الحياتية؛ فهي تهتم بالأرقام وليس بالإنسان، ولا تساعده في حل مشاكله الحياتية.[7] ومن خلال هذا النقد اللاذع تتضح أهمية البحث االاثنوغرافي الذي يهتم بدراسة يوميات الإنسان ضمن تباين سياقه الثّقافي وواقعه الاجتماعي، وليس بتنوع الأرقام. وهذا من خلال التّفاعل المباشر للباحث مع المشاركين في البحث. ويكون الهدف المنشود اكتشاف واستخلاص الحقائق والبيانات المختلفة من أفواه الافراد الذين تتباين تجاربهم وخبراتهم، بغية انتاج النظريات أو التّفسيرات.

وجوه التداخل بين الاثنوغرافيا والاثنولوجيا والأنثروبولوجيا

إذا كانت الانثروبولوجيا "تتيح لنا من ناحية أن نرى الجنس البشري ككل، وتساعدنا على الوصول إلى فهم أعمق لهذا الكائن العجيب في كلّ مكان وفي كلّ زمان.. وتجعلنا نعتاد على الطّريقة التي ننظر بها إلى الثّقافات والمجتمعات الانسانية وننتقل بسهولة من الجزئي إلى العام والعكس صحيح"[8]، فإنّ الاثنوغرافيا "وصف دقيق لكلّ ما نراه أو نسمعه... أصغر ظاهرة، أصغر سلوك من الحياة اليومية يظهر لنا بالكامل."[9]

وفي الوقت الذي يعني "اصطلاح الاثنوغرافيا Ethnography في بريطانيا البحوث الوصفيّة والتّحليلية التي قام بها علماء الأنثروبولوجيا البريطانيون حول الشّعوب والأقوام البدائية التي درسوها دراسة ميدانية"[10]، فإنّ مصطلح "الاثنوغرافيا" استخدم كثيرا في بلاد شرق أوروبا والاتحاد السّوفيتي على وجه التحديد (روسيا حاليا)، ومن أهمّ مجالات الاثنوغرافيا بهذه المنطقة، دراسة التّنظيمات الاجتماعية والمجتمعات البدائية والمتحضّرة، وما تعلّق بالتّحولات في هذه المجتمعات وانتقالها إلى دول جديدة وما نتج عنه من طبقات اجتماعية. واهتمّ الاثنوغرافيون الرّوس أيضا بدراسة المشاكل المتعلّقة بالجماعات العرقية، المشاعر القومية للأقلّيات، وبتطوّر المجتمعات الإنسانية في إطار النّظرية الماركسية.

ونشأت الاثنوغرافيا في روسيا عام 1845 مع تأسيس الجمعية الروسية للجغرافيا في "سان بتر سبورغ" التي كان قسم الاثنوغرايفا فيها مصدر عمل هام لجمع المواد والمعلومات عن الشعوب غير السلافية للامبراطورية، ولاحقا عن شعوب روسيا وبيلاراسيا واكراني (...) وفي سنة 1860 تأسست جمعية اصدقاء العلوم الطبيعية متضمنة شعبة الاثنوغرافيا والانثروبولوجيا الطبيعية، لتتقرب بهذا من العلوم المنهجية.[11]

وعرفت الاثنوغرافيا ازدهارا كبيرا بعد سنة 1917 خاصة عندما سخّرت الدولة الاشتراكية امكانيات اجراء هذا النوع من الدّراسات والتي تخدم مصالحها وتوجهاتها، وتم انشاء معهدا للاثنوغرافيا في اطار أكاديمية علوم الاتحاد السوفياتي، وتأسست مجلة الموسومة بـ "الاثنوغرافيا". وفي سنة 1923 شهدت ادخال فكرة الاثنية للدلالة على ما تصوّره الثقافة من جهة والشأن الاثني من جهة أخرى والذي حصر في الاثنية اليهودية.[12]

بالمقابل لا نجد في الولايات المتّحدة الأمريكية أيّة علاقة وثيقة بين الاثنوغرافيا والأنثروبولوجيا، بل هناك علاقة تشابهية بين الاثنوغرافيا والاثنولوجيا Ethnology.[13] وفي هذا الصّدد يرى الباحث "جون كوبنس" Jean Copans "أن الأثنولوجيا تستخدم نفس أدوات الأثنوغرافيا ولكنّها تحتفظ ببعد غالباً ما يكون اعتدالياً ووصفياً، كما يمكن لها أيضا أن تتحكم بديناميكية مؤقتة تشمل كلّ مجتمع أو ثقافة. وهي صور فوتوغرافية وأشرطة

سمعية وبصرية لأن الصورة تعبر أكثر على الواقع."[14] من جهته يعرّفها قاموس "هولتكرانس أنّ "الاثنولوجيا هي علم وصف الانسان ككائن ثقافي، وهي الدّراسة المقارنة للثقافة"،[15] كما يعرّفها" كروبر أنّها "علم الشعوب وثقافاتهم، وتريخ حياتهم كجماعات، بصرف النظر عن درجة تقدّمها".[16] أما "داياس" فيعرّف الاثنولوجيا بأنّها تمثّل الجانب العام المقارن والتفسيري من علم الانسان".[17]

وأما في فرنسا فكانت البحوث تستخدم بلا تمييز عبارتي "اثنوغرافيا" أو "اثنولوجيا" إلى غاية الحرب العالمية الثانية، للإشارة إلى علم واحد يدرس المجتمعات البدائية. وعندما كان يتم التّمييز بينهما، كان من المتفق عليه اعتبار مهمة الاثنوغرافيا جمع المواد التي تحللها الاثنولوجيا. ثمّ تمّ نشر كتابين بعد الحرب العالمية الثانية، أحدهما للمفكر "مارسال موس" الموسوم بـ "كتيب الاثنوغرافيا" (1947) والثاني للباحث "غرويل" بعنوان "المنهج الاثنوغرافي" (1957). ووضع الباحث السّوسيولوجي الفرنسي "مارسل موس" Marcel Mauss (1872 – 1950) في موجزه عن الاثنوغارفيا، تصوّره الشّامل للعمل الإثنوغرافي، حيث قدّم هيكلا دقيقا دعّمه بمحاور كبرى وخطوط فرعية تفصيلية.

ولما نقل الباحث "ليفي سروس" (1958) عبارة "انثروبولوجيا" من الو.م.أ إلى فرنسا، فرض على الاثنوغرافيا مهمة جمع المعطيات، وعلى الاثنولوجيا مهمة تحضير مادتها على صعيد المجتمعات الخاصة، ولعى الانثروبولوجيا مهمة اجراء التحليل المقارن للمجتمعات والثقافات وتغذية التأمل النّظري.[18] والشكل الموالي يختزل هذه المهام الموكلة للتّخصصات الثلاثة. إذ نلاحظ أنّ الاثنوغرافيا تمثّل خرم الابرة التي يجب أن يمرّ منه خيط البحث الهادف الى رؤية العالم في حبة رمل، ورؤية الانسانية في مفردة واحدة.

الشكل رقم 1 يبيّن مهام الاثنوغرافيا والاثنولوجيا والانثروبولوجيا بمنظر "ليفي ستروس"

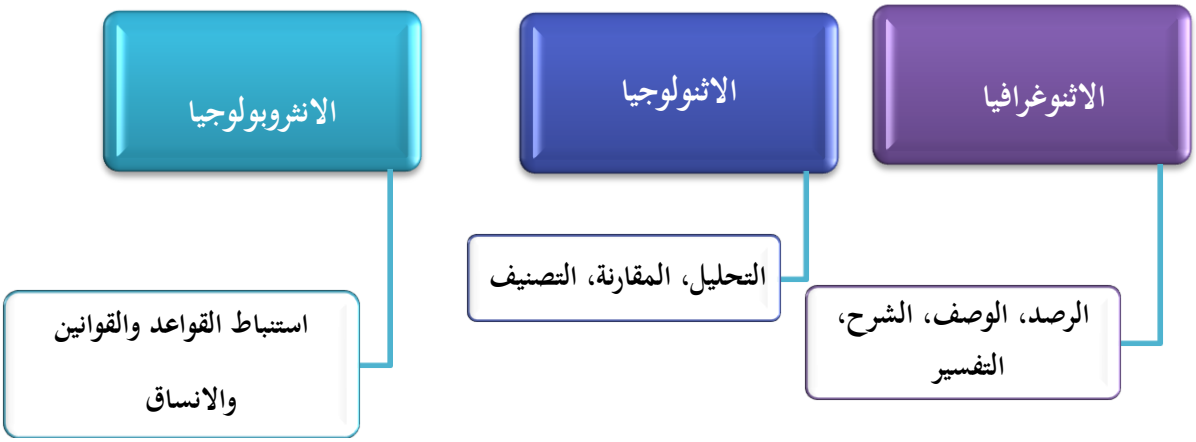

الاثنوغرافيا الجديدة وفن الوصف

مع ظهر ما يسمى بالاثنوغرافيا الجديدة على أنقاض الاثنوغرافيا التقليدية او الكلاسيكية، والتي تأثّرت بالمناهج البحثية اللغوية كثيرا، عملت على تطوير أساليب متقدمة دقيقة لدراسة موضوعات جديدة ومهمة، على غرار نظم التّصنيف. ويقوم هذا النّوع من الاثنوغرافيا ايضا على تراث الاثنوميتودولوجيا الذي يعتمد على توجيه

التحليل الاجتماعي إلى دراسة بناء الواقع الاجتماعي اليومي والتفاعل الاجتماعي، الذي يبنى على ما ينتجه الافراد من كلام وتنظيم اجتماعي، وهي عملية ابتكارية مستمرة.[19] ولم تعد اليوم الاثنوغرافيا متكئة على وصف وشرح المجتمعات البدائية ومختلف الثقافات وإنّما استحالت تبحث في الخواص والسّيمات التي تكشف عبقرية الشّخص العادي أثناء تفاعله الاجتماعي مع الزّمان والمكان، ومع معطيات وجوده المادية والرّمزية. لتسجّل بهذا الاثنوغرافيا الجديدة أو النّقدية لحظة تحوّل مهمّة في الحقول البحثية لمختلف التّخصصات الاجتماعية والاقتصادية والتّعليمية واللّغوية والإعلامية... وأنتجت صبغة بحثية ملائمة لدراسة كلّ العلاقات. فالطّبيعة النّاقدة للاثنوغرافيا تهتمّ اهتماما بالغا بعلاقات القوّة التي يعاد انتاجها في فضاءات تتحدّد باختلاف تموقع الذاتيات فيها.

وعلى ضوء هذه الأهمية البالغة للاثنوغرافية فإنّ الباحث "جون بريوار" John D. Brewer قد عرّفها في مقدمة كتابه الموسوم بـ"الاثنوغرافيا" بأنّها العلم الذي يدرس النّاس في أماكنهم الطّبيعية أو ما يسمهم الحقول ``fields`` عن طريق أدوات تلتقط مختلف المعاني والممارسات اليومية التي يكون فيها الباحث مشاركا عن كثب، بغية جمع البيانات بطريقة منهجية دون أن يتدخّل في تغيير معانيها.[20] كما اعتبرها الباحث فيترمان David Fetterman فن وعلم الوصف. إذ يقوم الباحث الاثنوغرافي من خلالها بوصف ثقافة جماعة معيّنة وقد يكون وصف مجموعة قبلية صغيرة في أرض غريبة أو أحد فصول الحياة اليومية في الطّبقة المتوسطة من ضواحي المدن.[21] فهي فن تعتمد على الملاحظة عن قرب (بالمشاركة) قصد الوصف، وعلى الخبرات والقدرات الشّخصية للباحث، وعلم يهدف إلى فهم وتحليل طرق الحياة الأخرى غير المرئية.

ويجب على الباحث "أثناء إجراء العمل الميداني أن يكون قادرا على تحقيق التّوازن بين عضويته الكاملة في الجماعة وهويته كباحث خارج الجماعة."[22] وبما أنّه يتقاسم يوميات وأنشطة الأشخاص وأنماط تفاعلاتهم... عليه بالقدرة على الوصف الدّقيق لما يجري داخل الجماعة من خلال استشعار ما يدور باعتباره عضوا كامل العضوية في المجموعة، وأن يكون متحكّما في النّهج التّحللي من الخارج، فالدّراسة تتطلّب منه أن يكون داخل وخارج المجموعة حتى يقدّم تحليلا موثوقا مبنيا على أسس علمية.

كما يلجا أيضا بالإضافة استخدامه الملاحظة والمقابلة إلى المصادر الخارجية للبيانات ذات الصّلة، "وهذا يشمل الاقتباسات، والأوصاف، والمقتطفات من الوثائق... مما يؤدي في نهاية المطاف إلى نتيجة واحدة، وهي الوصف السّردي. كما قد تتكوّن الرّواية من الخرائط والرّسوم البيانية، وغيرها من الأعمال الفنية التي تكون قادرة على المساعدة."[23]

ويشبه غطس الباحث الاثنوغرافي في عمق الظّاهرة المراد دراستها حالة الغطّاس الذي يتأهّب لاكتشاف كنوز جديدة في أعماق البحار والمحيطات وفي كلتا الصّورتين يحدّد كلّ منهما خريطته التي تحدّد له مجال دراسته وبحثه. فعندما يتفقّد الغطّاس قارورات الاكسجين وقناعه وبذلته... فإنّ الاثنوغرافي يتفقّد بدوره أدواته من كرّاسة ملاحظات وآلة تصوير ومسجل... ويخطّط كلّ منهما ليختار أدواته لتحليل البيانات أو للغطس. كلاهما يتعمّقان في مجال غير معروف ومجهول من أجل إزالة السّتار عن ما هو في القلب.[24]

وبعد جهود الباحثين أصبحت الاثنوغرافيا ارثا بحثيا يحتل مقاعد الجامعات ومراكز البحث، وطريقة بحث تدرس في المدرجات والفصول من قبل باحثين وأساتذة مختصين، ووفق قواعد وتقاليد عريقة في البحث، بل أصبحت التّحقيقات الاثنوغرافية مرجعا أساسيا لمختلف تأويلات البيانات الكمية. وفي هذا الصّدد لا يمكن نكران ما قدمه الباحث البولوني أيضا "مالينوفسكي" Bronisław Kasper Malinowski من خلال دراسته الميدانية في جزر "التروبرياند" الافريقية، والتي استغرقت أربع (4) سنوات (1914- 1918)، وقام بنشرها سنة 1922، حيث حاول من خلالها هذا الباحث التّأسيس لدليل منهجي للعمل الحقلي لغيره من الباحثين، وهو يشير في مقدمتها إلى ضرورة وأهمية الدّراسات الميدانية، التي تمكّن من معرفة عن قرب المجتمعات البدائية.

وزادت القيمة العلمية لهذا الدليل المنهجي في العمل الحلقي عندما نشرت أرملته عام 1967 يومياته التي كان يسجلها خلال إقامته بجزر "التروبرياند" الافريقية. فالطّريق الوحيد لفهم حياة الأفراد من وجهة نظرهم هم لا من وجهة نظر الباحث هو الانخراط الكامل معهم في هذه الحياة. ومن الأفضل للباحث الاثنوغرافي في مثل هذا العمل أن يضع أحيانا آلة التّصوير والمذكرة والقلم جانبا، وأن يشارك بنفسه فيما يجري حوله، فيدخل مع الأهالي في ألعابهم، ويصاحبهم في رحلاتهم وجولاتهم، ويستمع إليهم ويشاركهم في مناقشاتهم.

ثانيا: الاثنوغرافيا لاستنطاق الظّواهر الاعلامية والاتصالية

لم تعد الاثنوغرافية كنشاط بصري مقتصرة على المجالات الاجتماعية والأنثروبولوجية والنّفسية، والتّربوية والأثرية والطّبيّة، ولكنّها تعدّت إلى مجالات بحثية عديدة أخرى خاصة في ظلّ التّقدم التّكنولوجي الذّي يشهده التّاريخ البشري. حيث يصف المختّصون في علم الاقتصاد الاثنوغرافيا أنّها "منهجية بحث تسمح بوصف كثيف وبليغ للفعل الاجتماعي. رغم ميلاها بين أحضان العلوم الانسانية كخطوة ملائمة وقادرة على جلب بيانات فهم خاصة بالمجتمعات والثّقافات ومختلف النّشاطات البشرية. وقد استعملت أولا لوصف ثقافات الآخر في المجتمعات البدائية، ثمّ سرعان ما أصبحت تستخدم في دراسة سكان المدن أي المجتمعات

الحضرية، وفي ظل الأهمية التي تحوزها الاثنوغرافيا فقد نالت حيزا معتبرا من اهتمام العلوم الاقتصادية عامة، وفرع التّسويق بصفة خاصة، بغية دراسة جمهور المستهلكين.[25]

من جهتها لم تفوّت بحوث الإعلام والاتصال فرصة استدعاء المنهج الاثنوغرافي بعدما سيطرت الأبحاث الكميّة طويلا على دراسات جمهور وسائل الاعلام، والتي همّشت في مجملها أهمية المتلقي (القارئ والمستمع والمشاهد)، ومختلف تفاعلاته واتجاهات فهمه وتأويلاته للمضامين الاعلامية، ولم تعط بذلك معلومات كافية لتّفسير السّلوكات والممارسات الفردية في حد ذاتها.[26] وحتى مع ظهور نماذج الاتصال كان التّركيز يرمي بثقله على المرسل ودوره في تنظيم وتكوين الرّسالة الإعلامية دون الطّرف الثاني، وعليه سادت خطية وأحادية اتجاه الإعلام وكأن التلقي وفق هذه النّظرة كان موجها من طرف واحد دون أدنى اعتبار للمتلقي. **المشاهدة التلفزونية: بين رمزية التّلقي وسياق المشاهدة**

كانت سنوات الثّمانينيات من القرن الماضي نقطة التحوّل ونقل أبحاث الجمهور من دائرة التّأثير وإشكالية (ماذا تفعل وسائل الاعلام بالجمهور؟) بقيادة توجه الدّراسات الثّقافية مع "دافيد مورلي" David

Morley ورفقائه، إلى الاهتمام بعناصر العملية الاتصالية من منطلق الملاحظة الاثنوغرافية ومحاولة الإجابة على إشكالية "كاتز" ماذا يفعل الجمهور بوسائل الإعلام؟ التي أكّدت على عدم سلبية هذا المتلقي وأنّ دوره فعال في عملية بناء المضمون الإعلامي، كما أنّ البحوث الإعلامية لم تتملّص من توجهات وتخصّصات أخرى منحت بعض الأدوات وساعدتها على فهم الظّاهرة الإعلامية، وتلقي هذه المضامين، ومعرفة الآثار المترتبة عنها، ما يدخل ضمن ما هو اجتماعي من خلال تفاعل المتلقي والوسيلة الإعلامية في المجتمع. ومنها ما يصبّ فيما هو نفسي بسيكولوجي من خلال تفاعل المتلقي مع الوسيلة الإعلامية، ومنها ما هو سيميولساني يدخل في ظلّ الخطاب الإعلامي أو اللّغة الإعلامية.

ويمكن اعتبار الدّراسات الثقافية في معتركها التّاريخي قد تأسّست على ثلّة من الباحثين المعروفين على مستوى السّياق العالمي منهم الآباء الأوّلون على غرار كل من "ريشارد هوقارد" و"إدوارد توبسون " و"ريمون وليمس" و"ستوارت هال" و"ديك هبديج" و"دافيد مورلي" و"تيري إقلنتون"، ومؤخرا "يان يانغ"، في سياق شهدت فيه بريطانيا تطورا هاما في المجال الصّناعي، الذي تزامن مع ظهور وسائل الاتصال الجماهيرية وما تبثه هذه الأخيرة من مضامين، ادخلت هاجس الخوف على قلوب هؤلاء الباحثين من خطر الصّناعات الثّقافية وتأثيراتها على الثّقافة الشّعبية. كما تخوفوا كذلك من التّأثيرات السلبية للإشهار على المجتمعات.

و وفي باب أخر تبيّن بأنّ المركز استفاد من عدّة توجهات ساعدته على إثراء قاموسه البحثي والمفاهيمي، منها التّفاعل الاجتماعي مع مدرسة شيكاغو في عمل بعض الباحثين في المركز على مستوى اثنوغرافي من خلال تحليل القيم والمعاني الحيّة، وسلوك الجماعات الثقافية اتجاه الثّقافة المهيمنة، والطّرق التي يحدّد بها الفاعلون الاجتماعيون مواقفهم وشروط ممارساتهم وحياتهم، بحيث يتقارب التّقليد التّفاعلي مع التقليد الإثنوغرافي البريطاني. كما أسّسوا ورشات التّاريخ الشّفهي والاشتراك في عمل الحركات النّسوية عند كتابة تاريخ المرأة وبحثوا في إرث التّاريخ الأدبي، وخاصة في أعمال "جورج لوكش"، وكذا أعمال "ميخائيل باختين" حول الماركسية وفلسفة اللغة، وعملوا على ترجمة أعمال "والتر بنجامين"، ودرسوا أعمال "لوسيان قودمان" و"جون بول سارتر"، وأعمال "رولان بارت" و"انطونيو غرامشي". وتلقى المركز هذه المؤثّرات بطريقة نقدية وحاول بطريقة أصيلة تأسيس فرق بحث اهتمّت بعدّة مجالات منها الأنثروبولوجيا، ودراسات وسائل الإعلام، ونظريات اللّغة والذّاتية، والأدب والمجتمع، وربط هذه القضايا بالحركات الاجتماعية،[27]. وخاصة التغيرات التي أصبحت تشهدها المجتمعات الحديثة سواء في الحياة العملية أو الاجتماعية. لأن العديد من المتغيّرات دخلت السّياق الاجتماعي سواء ما تعلق "بالماكنة" أو بوسائل الإعلام، هذه الدعائم التي ارتبطت مباشرة بالعالم المعاش وعملت على تغير العلاقات الاجتماعية وأثرت بصورة مباشرة على الثّقافات المحلية ما جعل الباحث "ريشارد هوقارد" يجد بأنّ الأدب هو نوع من الفرار دون عواقب لأنّه منبع للمتعة، لكنّه دون علاقة مع الحياة الواقعية فهو عالم مفترض من الأحلام والأوهام.

لم يولي مركز "برمنغهام" اهتمامه بوسائل الإعلام إلاّ مع بداية السبعينات (70) مع أعمال نظرية موازية بحثت في بعض المفاهيم مثل الإيديولوجيا والهيمنة وكيف تؤثّر هذه المفاهيم على عمل وسائل الإعلام بحيث اعتبر ألتوسير وسائل الإعلام "جهاز إيديولوجي" منتج وناقل الإيديولوجيا أو وسائل للهيمنة في المفهوم الغرامشي،[28] وتأثرا

بالتوجه السيميولوجي وخاصة بما قدّمه كل من " رولان بارت" و"إيكو" و"باختين"، إذ بيّن "ستيوارت هال" اهتمامه الواضح بخطاب وسائل الإعلام خاصة التلفزيون، من خلال مقاله الشّهير "الترميز وفك الترميز" Codage/décodage الذي نشره سنة 1980. عبر هذا المقال حدّد هذا الباحث في مرحلة فك الترميز ثلاث مراحل: مرحلة الهيمنة أين يكون هناك توافق وتكافؤ في المدونة، حيث يندمج المتلقي في المحتوى مباشرة ويؤوّل الرسالة بناء على مدونة المرجع، أي أنّ المتلقي يقبل الرّسالة مباشرة. وهذه تُظهر الفطرة السليمة للنظام الاجتماعي والعالم المهني. أما مرحلة المفاوضة فيفسّر المتلقي الرّسالة التلفزيونية بناء على مرجعية مخالفة، أي يعدّل جزءا منها، رغم تقبله للحقيقة التي تطرحها الرّسالة ،لكن يعارض جزئية منها. فمثلا قد يقبل الرّسالة التي تحدّثه عن تجميد الأسعار باسم المصلحة العامة، ويقوم بإضراب للدفاع عن مصلحته،[29] أما المرحلة الثالثة فتخصّ مرحلة المعارضة أين يجمع المتلقي بين مزيج من القبول والرّفض بناء على المنطق المتناقض الموالي جزئيا للمعاني والقيم المسيطرة، ولكنّه يستنبط الحجج والبراهين من مواقف معاشة كأن يسبق مصلحة الفئات الاجتماعية على الصالح العام.[30]

وتبعا للمراحل التي أقرّها "ستيوارت هال" في تحليل الرّسالة الإعلامية، والتي استلهمها أساسا من نظرية "فرانك باركين" Frank parkin والتي تعكس الطّبقات الاجتماعية وكيف تكون علاقة الهيمنة والمعارضة والمفاوضة فيما بينها نجد في مرحلة لاحقة يعمل دافيد مورلي بنفس المفاهيم لكنه حاول ضبط العملية الإعلامية الأكثر بتفقد هذه المفاهيم في حصة تلفزيونية إخبارية Nationwide التي بثتها قناة BBC قام الباحث بدراسة تلقي هذا البرنامج من خلال ثمانية عشرة (18) عائلة بريطانية تنتمي إلى طبقات اجتماعية مختلفة، ونقل مورلي الاهتمام من الطبّقة إلى الجنس والسّن والدّخل الشهري كمتغيرات لقياس عملية التلقي، واستبدال عملية فك الترميز بسياق المشاهدة، الذي يتمّ عادة في المنزل كسياق طبيعي وضمن الأسرة وعبر برنامج تلفزيوني ما، ومن خلال ثقافة الأسرة نفسها، وكيف تحدث عملية التلقي والمشاهدة، ومن يملك سلطة القرار في التعرض الإعلامي داخل الأسرة الواحدة؟.

ويعتبر هذا البحث الإثنوغرافي الذي يقوم أساسا على الحضور الفيزيقي للباحث في سياق المشاهدة لتقيم عملية التلقي المنزلي. وبهذا البحث الذي قام به "مورلي" تبين بأنّ القوّة لا تنحصر في الصّراع الموجود بين الطبقات لكن يمكن أن تتجسّد في اختلافات السّن والجنس، وفتح مجال البحث في برامج أخرى أي أنه نزع الشمولية على دراسة الخطاب الإعلامي، ما ظهر في عمل الباحثة الأسترالية "يان يانغ Ien Ang" والتي حاولت من جانبها تحليل المسلسل التلفزيوني الأمريكي "دلاس Dallas" وحدود المتعة التي المحققة لدى الجمهور المتلقي. وبهذه الأعمال الإثنوغرافية الإمبريقية، تقر الباحثة الأسترالية أنه لا يمكن اختزال التلقي في عملية نفسية لكن يجب الاعتراف بأنه عملية ثقافية، وعليه فإن الإنتاج وإعادة الإنتاج الاجتماعي للمعنى المتضمن في العملية الثقافية لا تخص المعنى ولكن تهدف إلى تبيان السلطة الموجودة في الرسالة.[31]

ساهمت انجازات كل من الباحثين "دافيد مورلي" وجانت ستايجر Janet Staiger ودانيال ميلر Daniel miller وباكر مارتن Martin Baker في تسيق عملية التلقي وخاصة تأطير التغيرات التي تدخلها يوميا

التكنولوجيات الجديدة على الفضاء الإعلامي. وهنا يمكن التّأكيد أنّ البحوث الإعلامية التي شهدها الثلث الأخير من القرن الماضي كانت فعلا دفعا قويا ونفسا جديدا للبحث الإعلامي، بحيث تمكّنت هذه الأخيرة من نقل الاهتمام من البحث في التّأثير إلى الحث في التّلقي، ومن البحوث الكمية إلى البحث الكفي. وحصرت عملية التلقي في السّياق الطّبيعي للمنزل من خلال فعل المشاهدة. ويعاز الفضل الأساسي أو القاعدي لأبحاث "ستوارت هال" بداية، و"دافيد مورلي" في المرحلة الثانية. لكن لا يمكن التنكر للإسهامات الفعالة للتوجهات ما بعد البنيوية خاصة أعمال "رولان بارت" و"لفي ستروس" التي ضلّت واضحة في أعمال المدرسة الثقافية حينما نقل باحثوها الاهتمام من ثنائية (مؤلف– نص) إلى (نص– متلقي) وخاصة أعمال "رولان بارت" في استجلاء المعنى من النّصوص، وكيف تتمظهر الايدولوجيا في الدّلالة. وإذا وضعت الدّراسات السيميائية القراءة وظروفها كشرط لعملية التلقي فإن البحوث الإعلامية وضعت المشاهدة كفضاء لعملية التلقي، وهذا ما بدا واضحا في عمل "مورلي" الذي تمكن من حصر التلقي للمضمون الإعلامي سواء فيما بين أفراد العائلة أو بين العائلات الأخرى التي شملها البحث، وكتب "ستيوارت هول" في مقدمة كتاب "دفيد مورلي" الذي خصّصه للعائلة والتّلفزيون "أن التّصورات الفردية للمشاهد وللجمهور وحتى للتّلفزيون ذاته قد ارتحلت نهائيا على الأقل _حسب ما نتمناه_ بفضل التّشديد على الاختلافات والمتغيّرات، وإنّ خريطة التّغيرات ناتجة عن العوامل التي تتغلغل في السّياقات الاجتماعية للتلقي التي شرع مورلي في انجازها وان ما تكتشفه هذه الخريطة وصفة عامة، هو التّفاعلات الرّقيقة بين المعنى والمتعة والاستخدام والاختيار."[32]

بمعنى أن ابراز السّياقات والظّروف التي تحدث فيها التّأويلات ومختلف التّفاعلات مع المضامين الإعلامية أصبحت من بين أهمّ الانشغالات التي غيّبتها طويلا الدّراسات الإعلامية الكميّة، خاصة وأنّ "المتلقي ليس معزولا في افعاله الاتصالية عن الوسائط التي يستخدمها وليس معزولا أيضا عن محيطه"[33]

اثنوغرافيا المشاهدة التلفزيونة: من "دافيد مورلي" إلى "جيمس لول"

تعتبر النّظرة النّقدية التي قدمها السّوسيولوجي "ميشال دوسيرتو" M. De Certeau بداية القطيعة مع تلك الدّراسات الكميّة للجمهور وكذلك دراسات تحليل المضمون والتي اعتبراها سيرج بروكس ظلّت غير كافية لأنّها توجّهت بالأساس إلى معالجة ظاهرة استخدام التّلفزيون خارج سياقه الواقعي (اليومي) وتحليل مضامين الرّسائل الإعلامية... أو أنّها بحوث قائمة على الأساليب الكميّة التي تعني بقياس حجم الجمهور"[34] كما يرى هذا الباحث الكندي أيضا أنّ "أعمال الباحث "دو سيرتو" تتلاقى مع أعمال الباحث "بلومر Blumer فيما يخصّ الاستعمالات والإشباعات التي تصبّ في الإطار النّفسي والوظيفي بعيدا عن البعد النّقدي. أما النّموذج المقترح من طرف "ميشال دوسيرتو" يفتح في المقابل إشكالية المقاومة اليوميّة ذات الطّبيعة الاجتماعية والسّياسية مقابل عروض أجهزة التّوزيع والاستهلاك."[35]

ونذكّر أنّ "ميشال دو سيرتو" قد طرح إشكالية حبلى برؤية جمالية للحياة اليومية في أبهى تجلياتها البشرية من خلال الكشف عن جملة الإبتكارات والإبداعات التي ينتجها يوميا ذلك الشّخص العادي البسيط المنصهر داخل

الحشود. ومنها دعوة إلى "التّعمّق في ظاهرة استخدام التّلفزيون في سياقه اليومي رغم أنّه لم يتوجّه إلى دراسة الممارسات التّليفزيونية.

فهو يعتبرها ممارسة عادية تدور في فضاء من الإبداعات المتردّدة التي تميّزها الحياة اليومية غير الخاضعة لمنطق العقلانية المهيمنة والمنطق البيروقراطي والتّجاري المتحكّم الذي تحكمه أجهزة المراقبة الاجتماعية للمجتمع الاستهلاكي."[36] ليعطي للباحثين مادة تفكير لا تنحصر فقط في الجمهور الفعّال والنّشط الذين تبناها العديد من الباحثين لاحقا والذين سيجدّدون بعمق حقل دراسات التلّقي المنصبّة في مقاربات الاثنوغرافيا والتّحليل النّفسي والتّحليلات القريبة من الدّراسات الثّقافية.

ويرى الباحث "اسكينازي" أنّ البحث الاثنوغرافي يتطلّب امكانيات مادية وبشرية هامة، وهو ما قام به الباحث الأمريكي "جيمس لول" James Lull والباحث الألماني "جميس رووج" James Rogge والفرنسي "دومينيك بولي" Dominique Bollier، والتي أفضت بنتائج معتبرة. إذ حلّل الباحث الفرنسي في بحوثه مضامين المحادثات الشّخصية المتعلّقة بحصص وبرامج تلفزيونية مختلفة تمّت مشاهدتها من قبل الفاعلين (المتحدثين). وكانت هذه المحادثات تتمّ في أماكن العمل أو الفضاءات العمومية أو البيت واحتلّ فيها موضوع المسلسلات والبرامج التّلفزيونية مكانة هامة، تتغذى هذه المحادثات من معارف المتحدّثين ومن تأويلاتهم انطلاقا من سياقات متباينة.[37]

وإلى جانب بحوث الملاحظة الاثنوغرافية لأعضاء الجمهور (أفراد، أزواج، عائلات) التي تضع استخدام التّلفزيون في سياق الحياة اليومية (D. Morley et R Silverstone) ارتكز J. Lull أيضا على الملاحظة في عمق العائلة كجماعة طبيعية تمارس المشاهدة، حيث انطلق من إشكالية تدور حول دور التّلفزيون كتكنولوجية منزلية داخل الحياة الأسرية، وأسفرت النّتائج أنّ لهذا الجهاز دوران أساسيان: أوّلهما أنّه أعاد بناء وتشكيل الحياة العائلية على مستوى التّوقيت (السّاعات) وبالتّالي العادات السّلوكية كطرق المشاهدة، ثمّ فتح ثانيا باب الحوار بين أفراد الأسرة حول مختلف المضامين التي تتمّ مشاهدتها بمعنى الاتصال العائلي.[38]

ويذكر أنّ الباحث الأمريكي James Lull "جيمس لول" قدم للبحوث الاعلامية دراساته التي جمعها في كتاب واحد موسوم بـ "عالم العائلات: بحث اثنوغرافي حول جمهور التلفزيون"،[39] وهو عالم حاول من خلاله "جيمس لول" رصد ووصف مختلف التّفاعلات مع مضامين التّلفزيون من خلال غوصه في عدّة مناطق من العالم، ليستنتج في المقام الأوّل وبناءا على المقابلات والملاحظات التي سجلها أن الممارسات التلفزيونية ما هي إلاّ امتداد للممارسات الثّقافية اليومية وللاتجاهات النّفسية والسّلوكية. وشملت هذه البحوث كلّ من الهند وبريطانيا وفنزويلا وألمانيا الغربية والولايات المتحدة والصّين الشّعبية، وهذا في المناطق الريفية والحضرية.

ووفّرت البحوث التي شملت منطقة الهند قيمة خاصة لأنّها كشفت عن نقاط هامة من الاختلافات الثّقافية الواسعة من داخل الأسر المبحوثة، أين اهتم الباحث بكلّ التفاصيل اليومية داخل الأسرة، مبرزا أوجه التّباين بين الجنسين التي استنتج فيها أنّها اختلافات عالمية واضحة وملفتة للاهتمام. حيث بيّن أنّ هناك اختلاف بين الرّجل والمرأة في تفضيلات البرامج التلفزيونية. فالرّجال في الصّين وفنزويلا يفضّلون برامج حول العمل والرّياضة والمغامرات الجديدة،

في حين تفضّل النّساء المسرحيات والمسلسلات الصابونية، والأفلام والموسيقى برامج الرّقص وبرامج الكوميديا. من جهة أخرى وضّح أنّ ملاحظة الثّقافات غير الغربية هو تحدّ للحكمة التّقليدية حول نتائج أبحاث الجمهور. فعلى سبيل المثال، وجد أنّ الابحاث في بريطانيا والولايات المتحدة، تؤكّد أنّ الرّجال غالبا ما يتحكّمون في زمام أمور المشاهدة، بما فيها اختيار البرنامج. لكن في فنزويلا فإنّ الوضع يختلف تماما.

وكتب مقدمة هذا الكتاب الباحث "دافيد مورلي" الذي علّق بين ثنايا سطورها أنّ عدم تطوّر الأبحاث الإعلامية في علم الاجتماع الكمي والنّوعي وفي الدّراسات الثّقافية لسنوات يعود إلى غياب الحوار والنّقاش حول هذه التّقاليد الكيفية المختلفة لا سيما في أوروبا، معتبرا ما قدمه الباحث "جيمس لول" حافزا يفتح الأبواب أمام جهود أخرى مماثلة، وحافزا للنقاشات والانتقادات البناءة. كما وصف زميله الأمريكي الباحث في مجال الاتصال أنّه من بين الباحثين البارزين الذين سعوا في أمريكا الشّمالية خلال السنوات الأخيرة إلى محاولة تطوير الدّراسات في سياق البحث النّوعي الخاص بهم، وأنّه قام بخطوة هامة في بناء حوار يحتمل أن تكون له قيمة، من خلال جمع جملة هذه المقالات العلمية في مؤلف بدل تركها مبعثر في مختلف المجلاّت، وهي بحوث من الصّعب الحصول على مثلها لعقود من الزّمن في بريطانيا.

من جهتها قدّمت السوسيولوجية الفرنسية "فيرونيك لوقازيو" Véronique Le Goaziou دراسة اثنولوجية غاية في الأهمية حول أجسام متفرجي التلفزيون[40] اعتمدت على الملاحظة بالمشاركة كأداة هامة لجمع البيانات والمعلومات، حول هيئات ووضعيات وحركات المتفرجين للبرامج التلفزيونية في حالة التّلقي. بمعنى استهدفت الاحاطة بمكانة الأجسام (الاجساد المتحركة) في عالم من المتّعة والراحة، وفي ظلّ هيئات وتكتيكات جسمية تؤدي ممارسات يومية بسيطة. وتقرّ الدّراسة بالتّساؤل حول طبيعة ومعنى هذه البساطة التي تُظهر الأفراد يسيطرون ويتحكمون جيّدا في مشاهداتهم، في هذه الأثناء تكون المشاهدة التلفزيونية اللّحظة التي يثبت هؤلاء المتفرجون وجودهم من خلال تصرفاتهم العفوية.

وانطلقت من ملاحظة الأفراد كفاعلين اجتماعيين وهم يشاهدون التلفزيون في بيئتهم الطّبيعية، مؤكّدة رغبة الباحثة الملحّة على اكتشاف ما لا تستطيع أن تجده في اجابات الأفراد حول هيئاتهم وحركاتهم وطرق مشاهداتهم. وفي هذا الاطار تذكر الباحثة في ثنايا دراستها أنّ هناك فرق كبير بين أن يجيبك الشّخص عن طريقة أكله وجلوسه في المائدة وبين أن تجلس معه في نفس المائدة لتشاركه طعامه وتلاحظه.

ومن بين أهم ما استنتجته الباحثة خلال ملاحظاتها أنّ الأفراد عندما يدخلون منازلهم يرتدون ملابس بيتية مريحة تختلف من فرد إلى آخر ولكنّها تتفق في أنّها ثياب مسترخية توفّر للجسم الشعور بالراحة. كما أنّ المتفرجين يتخذون وضعيات جسمية مسترخية تتلذذ أثناء المشاهدة الجماعية، حيث تتلاصق الأجسام في وضعيات حميمية كأن يتكأ بعضهم على بعض أو يحضن الآباء أطفالهم... وفي غالب الأحيان جلب أفراد الأسر معهم بعض الحلويات كالشكولاطة أو المكسرات أو القهوة أو المجلاّت او الكتب... ووسائد أو أغطية ملائمة تبعث الرّاحة واللّذة وتعتبر غرفة المعيشة لدى هذه العائلات غرفة متعدّدة الوظائف.

ووصفت الباحثة أنّ العلاقة بين المشاهدين والتلفزيون علاقة مقلوبة ليس هم من يتفرجون عليها وإنّها هي من تنساب في طقوسهم اليومية وعاداتهم الاجتماعية المشتركة. وهذه الوسيلة الاعلامية ليست سوى وسيلة لتمضية الوقت والتّرفيه عن النّفس، وتخفيف الضّغوطات اليومية بدليل أنّ الأفراد المبحوثين كانوا يشاهدون برامج تافهة لا تتعب تفكيرهم ولا مشاعرهم. وكشفت أيضا الباحثة أنّ التلفزيون لم يعد سوى جدار (حائط) من الصّور والأصوات، تشارك النّاس حياتهم اليومية، وتراقب من مكانها مختلف طقوسهم اليومية العائلية، والوظائف والنّشاطات التي يقومون بها، طالما يشاهدونها متى أرادوا وكيفما رغبوا.

من جهتها أفضت دراسة الباحث الألماني "جيمس روج" أنّ استخدام الميديا بقيادة التّلفزيون لم يُعيد تشكيل الحياة العائلية (تنظيم الوقت، ارتبط البرامج اليومية للأفراد بالمشاهدة التلفزيونية بطريقة ملفتة للانتباه، التأثّيث في المنزل، الفضاء المنزلي المحتل من قبل التكنولوجيات، التفاعلات..) فحسب وإنّما تسبّب التّلفزيون في خلق الصّراعات العائلية وإبراز المعارضة. وفي هذا السّياق ذكر هذا السوسيولوجي قصصا يومية كثيرة استمدها من وحي الواقع أهمها أنّ العائلة التي يكون فيها الأب مدمنا على المشاهدة التّلفزيونية يؤثّر على تربية الأبناء خاصة، وأنّهم يستغلّون هذا الادمان كوسيط يردع رفض الأم لمشاهدتهم التلفزيون.[41]

هذا بالإضافة إلى بحوث حديثة أخرى على غرار تلك التي تتعلّق بعلاقة التّلفزيون والمشاهدين في تكوين الذّاكرة الاجتماعية والهوية المشتركة (Schleesinger و j. Bourdon)، وبحوث تعرض الاغتراب الفردي للمشاهدين عن طريق المقابلة المعمّقة حول الممارسات اليومية واستخدامات التلفزيون... وهي بحوث ستكون لا ريب نقطة ارتكاز لأبحاث أخرى جديدة في ظلّ بيئة تكنولوجية غيّرت الكثير من تفاصيل الحياة، تماما كتلك الأبحاث التي سبقتها من قبل على غرارما قام ه كل من الباحثين: (Herzog, Aderno, Horkeimer, Marcuse, Hoggart, Gerbner,Hogben,Hearold, Klapper,, Bandura,Katz,Curran,Mc Quail, Brown, Zillmann...)

الدّراسات الاعلامية: من الاثنوغرافيا إلى النتنوغرافيا

على ضوء ما شهدته المجتمعات الانسانية من تحولات في الظواهر الاتصالية المتنوّعة، حيث أصبح للفضاء الالكتروني دور هام في تحقيق نوع من التّواصل الانساني بين العديد من التّجمعات البشرية، والأفراد من كافة أنحاء العالم، وأصبحوا يتشاركون ويشتركون في نفس القضايا والأهداف، التي قد تؤثّر فيهم ويؤثّرون في انتشارها أو دعمها، عبر ما توفّره شبكة الانترنت ومختلف الوسائل التكنولوجيا التي عملت على انتقال العالم بطابعه المادي إلى عالم افتراضي، تدور في فلكه الاليكتروني مختلف مجالات الحياة اليومية للإنسان المعاصر. وعندما غابت المعرفة عن تفاصيل وحقائق الظواهر الجديدة التي أفرزتها التطورات التكنولوجية، ولم نعد نملك معرفة مسبقة بها، زاد اهتمام الباحثين بالعمليات الدّقيقة المتعلّقة بهذه النقلة النوعية التي مست كافة مجالات الحيات الثقافية والفكرية والاجتماعية.... خاصة مع الانتشار الواسع لشبكة الانترنت التي حوّلت العالم إلى قرية صغيرة على حد تعبير الباحث "ماك لوهان" وأصبحت هذه القرية مبنية على "التخاطب والتحاور عبر النّصوص، الصوت، الرمز والصّورة، فنحن في عهد جديد هو العهد الذي ستكون فيه التكنولوجيا هي عصب لحياة. من جهة أخرى

أصبحت الوسائل الكيفية الوسائل التي يقع عليها الاختيار لقراءة البيانات، ولتفسير الأحداث، وفهم هذه التعقيدات الخاصة باستخدامات وسائل الاعلام الاتصال، بأسلوب غير كمي، تيمنا بالبحث في العلوم الاجتماعية الذي اعتمد التّحقيق الطّبيعي لاستخلاص البيانات والمعلومات، الي تفشل في شرحها البحوث الكميّة.

كان لابد من البحث على مناهج تتلاءم وهذه الاشكال الجديدة المتطورة بشكل متسارع، لهذا لجأ الباحثون إلى ما يسمى بالاثنوغرافيا الافتراضية Ethnographie virtuelle أو النتنو غرافيا التي اعتبروها رهانا لدراسات إشكاليات ما أفرزه التطوّر التّكنولوجي والعلمي الحديث الذي يتعقد يوما بعد يوم، وهذا أمام تعثّر الدّراسات الامبريقية أو الكمية التي لم تعد تستطع تفسير ما يحدث على مستوى هذا العالم الافتراضي من تفاعلات، واتصالات سريعة تخضع لقوانين انسانية غير قابلة للتفسير، وخارجة عن النطاقات المعهودة في لعالم الواقعي. وأصبح اليوم الحديث عن المجتمعات الافتراضية التي خلقتها هذه الفضاءات غير الواقعية، والتي يرى فيها الباحث الكندي "سيرج بروكس" أنها مجتمعات مبنية على أساس الاشتراك في الاهتمامات والميولات والأذواق والأهداف، ويعرّفها بأنّها مجموعة من الأفراد الذين يستخدمون منتديات المحادثة وحلقات النّقاش، أو مجموعات الحوار التي من شانها ان تولّد بينهم علاقة الانتماء إلى مجموعة واحدة يتقاسم أفرادها نفس الاهتمام والقيم والذّوق والأهداف...[42]

وقد قمت الباحثتان باتريسيا درينتا Patricia Drentea وجنيفر موران كروس Jennifer L. Moren-Cross سنة 2005 بدراسة اثنوغرافية اعتمدت أداة الملاحظة بالمشاركة الافتراضية استهدفت جماعة من الأمهات التي كانت تتقاسم نفس الاهتمامات والوضع على شبكة الانترنت، وكن يتبادلن النّصائح والمعلومات حول الحمل والولادة والرّضاعة، وقد كانت الباحثة جنيفر موران كروس إحدى المشاركات في هذه المجموعة، ما مكنها من ملاحظة الأخريات بالمشاركة في المجموعة.[43]

ولدراسة هذا المجتمعات التي ظهرت كبديل للمجتمعات الواقعية على الصّفحات الاليكترونية، ومرآة عاكسة للتطوّر التكنولوجي الرّهيب الذي يعشه المجتمع المعاصر، وفرضت قيودا جديدة على الباحثين الذين اعتمدوا المنهج الكيفي في دراسة وتحليل ومعالجة هذه الظّواهر الافتراضية. وفي هذا المضمار استخدم الكثير من الباحثين الغربيين "الاثنوغرافيا الافتراضية أو النت نوغرافيا" التي يقترحها الباحث روبرت كوزيني Robert Kozinets، لوصف المجتمعات الشبكية لأهمية هذا المنهج واقترانه الشديد بالوصف الدقيق للفراد والجماعات وحركات التفاعل، وهذا ما قام به كل من (راينغود Rheingold، تريكل Turkle، بيم Baym، ريد Reid، روبن حامان Robin Hammam، وهين Hine)، وقد قدم الباحث "هين" دراسته حول الاثنوغرافيا الافتراضية عام 2000 ذكر فيه أنّ هذا المنهج لا يقتصر على دراسة كيفية استخدام الافراد للانترنت ومخلفاتها وإنما يتجاوز الى كيفية اعطاء ممارسات الافراد معنى للانترنت في سياقاتهم المحلية، وقام في هذه الدّراسة أيضا بتحديد مبادئ ومهارات الاثنوغرافيا الافتراضية:[44]

التّواجد المستمر للباحث الإثنوغرافي على ساحة الميدان الافتراضي المبحوث.

التّقيّد الصارم بملاحظة يوميات المستخدمين

يجب أن يكون الفضاء معروفا كموقع للتبادل وليس كمكان للتبادل وجها لوجه

اعتبار الانترنت مكانا ثقافيا يقبل الملاحظة فيه

البراغمياتية في التّعامل مع الامتدادات اللاحدودة للعالم الافتراضي

اعتبار كلّ أشكال التّفاعلات الاثنوغرافية ممكنة، وليس فقط التّبادل وجها لوجه

ضرورة التكيّف مع كّل الوضعيات أثناء العمل على اكتشاف العلاقات الشّخصية

اعتبار الاثنوغرافية الافتراضية نشاطا يوميا للباحث أكثر من المستخدمين

خاتمة

في الأخير نجد أنّه في الوقت الذي فتحت تكنولوجيا الاعلام والاتصال آفاقا كبيرة، وأثارت عدّة قضايا وإشكاليات حول تأثيراتها وانعكاساتها على الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية والاتصالية... وتطورات ساهمت في بلورة العديد من المفاهيم الجديدة، تبقى أبحاث علم الاعلام والاتصال ورشة بحث مفتوحة باستمرار تحاول أن تؤسّس لنفسها حقلا معرفيا قائما بذاته، يغطي فضاءات واسعة، ويسعى للبحث في المقاربات الكيفية الكفيلة بوصف مختلف العناصر الاتصالية، على اعتبار أنّ الانسان كائن اتصالي، وهو يتعامل مع محيطه وبيئته. لا سيما وأنّها تصف الإنسان انطلاقا من رؤية جديدة من خلال التّركيز على قدراته الشّخصية أو الفردية أو الاجتماعية وتفاعلاته اليومية في كلّ الأماكن والأوقات، أي تصف طريقة انفتاح الفرد على العالم وطريقته في فهم الآخر (تصرّفه مع المنظمات والمؤسّسات واستخدام الآلات وكلّ ما توفّره التّكنولوجيات...).

الهوامش:

1. ريمون بودون، " **مناهج علم الإجتماع**"، منشورات عويدات، بيروت، 1980، ص 120.
2. عامر قنديلجي، "**البحث العلمي واستخدام مصادر المعلومات التقليدية والإلكترونية**"، دار المسيرة للنشر والتوزيع، الأردن، 2008، ص 45.
3. عبد القادر عرابي، "**المناهج الكيفية في العلوم الإجتماعية** "، دار الفكر، دمشق، 2007، ص43.
4. عبد القادر عرابي، "نفس المرجع، ص 10
5. نفس المرجع، ص 11
6. عامر قنديلجي، مرجع سبق ذكره، ص 45 .
7. عبد القادر عرابي، مرجع سبق ذكره، ص43 .
8. احمد أبو زيد، "**محاضرات في الانثروبولوجيا الثقافية**"، دار النهضة العربية، بيروت، 1978، ص 204.
9 François Laplatine, ``*L'ethnologue, le traducteur et l'ecrivain* ``,"Meta," vol 40, n 3, septembre, 1995, p 505.
10. ميشال دينكن، مرجع سابق الذكر، ص 91.
11. بيار بونت وميشال ايزار، "**معجم الاثنولوجيا والانثروبولوجيا**"، ترجمة مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للدرسات والنشر والتوزيع مجد، بيروت، لبنان، الطبعة 2، 2011، ص 21.
12. نفس المرجع السابق الذكر، ص 22.
13. حسين فهيم، "**قصّة الانثروبولوجيا: فصول في تاريخ الانسان**"، عالم المعرفة، فبراير، 1986، ص 17.
14 Jean Copans, *"Introduction à l'Ethnologie et à l'Anthropologie*", Nathan,Paris, 1996, PP 9 – 12.
15. ايكه لتكرانس، "**قاموس مصطلحات الاثنولوجيا والفلكلور**"، ترجمة محمد الجوهير وحسن الشافعي، ط1 ، دار المعارف ومصر، 1973، ص 16
16. نفس المرجع، ص 16.
17. نفس المرجع، ص 17
18. بيار بونت وميشال ايزر، مرجع سابق الذكر، ص 24.
19. روبرت المرسون وآخرون، "**البحث الميداني الاثنوغرافي في العلوم الاجتماعية**"، ترجمة هناء الجوهري، دار الكتاب والوثائق القومية، القاهرة، 2010، ص 16
20. John D. Brewer , `` *Ethnography*``, Open University Press, Buckingham, first published, 2000, p 10.
21. David Fetterman,``Ethnography: Step-by-step``, Applied Social Research Methods Series, Sage Publications, 1998, p11.
22. Michael Genzuk , « *A synthesis of ethnographic research* », Center for Multilingual, Multicultural Research, University of Southern California, 2003, Retrieved 25 05 2015 at 11 20, from http://www-rcf.usc.edu/~genzuk/Ethnographic_Research.html
23. Ibid.
24. Baptiste Cléret ," L'ethnographie comme démarche compréhensive: immersion dans les dynamiques consommatoires du rap en France", *Recherches qualitatives, vol* 32 (2), pp51-52.
25. Baptiste Cléret, op.cit,p 52.
26. Daniel Cefai et Dominique Basquier, ``*Les sens du public*``, Paris,PUF, 2003, p 18.
27. Armand et Michèle Mattelart : *Histoire et theories de la communication*, Paris, Edition la Découverte, 1995, pp 60 ,61.
28. Brigitte Le Grignou,`` *Du coté du public:* Usages et reception de la television``, Paris, Edition Economica, 2003 , p 52.
29. Eric Maigrait, op.cit. p150.
30. Armand et Michèle Mattelart , opcit, p 61
31. Brigitte Le Grignou, op.cit, p 55.
32. Armand et Michèle Mattelart, op.cit, p 120
33. مخلوف بوكروح، "التلقي في الثقافة والاعلام"، مقامات للنشر والتزيع، الجزائر، ط 1، 2011، ص 159.
34. Serge Proulx, "une lecture de l œuvre de Michel De Certeau: l´ invention du quotidien, paradigme de l activité des usages", Communication, vol 15, n 2 automne 1994, p 186.
35. Ibid, p 186.
36. Ibid, p 192
37. 21. Jean-Pierre Esquénazie,``La sociologie des publics``, édition la Découverte, Paris, 2003, pp 84 87
38. Ibid, pp 85 86
39. James Lull,``*Inside Family Viewing : Ethnographic Research onTelevision's Audiences*``, Routledge, New York,1990
40. Véronique Le Goaziou, ``Le corps des téléspectateurs``**, Réseaux",** 1999, volume 17 n° 92- 93, pp 293- 314.
41. Jean-Pierre Esquénazie,``opcit, p 86.
42. Serge Proulx, ``les communautés virtuelles : costruisent- elles du lien sociale?, communication, Colloque international « L'organisation média. Dispositifs médiatiques, sémiotiques et de médiations de l'organisation », Université Jean-Moulin, Lyon, 19-20 novembre 2004, retrieved 22 09 208 at 8.00 from http://www.lcp.cnrs.fr.
43. Patricia Drentea and Jennifer L. Moren-Cross. 2005. "Social Capital and Social Support on the Web: The Case of an Internet Mother Site." *Sociology of Health and Illness*, retrieved *26* 10 2018 at 9.00 from https://www.dhi.ac.uk/
44. Hine,C, ``*Virtual Ethnography*`**,** Londre sage Publications,2001, pp 63-64.